كتاب تهذيب الاخلاق

للعلاّمة الجاحظ تغمده الله برحمته بمحمد وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

اعلم ان الانسان ، من بين سائر الحيوان ، ذو فكر وتمييز ، وهو ابداً يجب من الامور افضلها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المقتنيات أنفسها ، اذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ، ولم يغلبه هواه في اتباع اغراضه .

وأولى ما اختاره الانسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته (١) ولم يرضَ بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله ، ومن تمام الانسان وكماله ، ان يكون مرتاضاً بمكارم الاخلاق ومحاسنها ، ومتنزهاً عن مساويها ومقابحها ، آخذاً في جميع احواله مابين (٢) الفضائل ، عادلاً في كل افعاله عن طرق الرذائل .

واذا كان ذلك كذلك ، كان واجباً على الانسان ان يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب ، ويصرف همته الى اقتناء كل كل خيم (٣) كريم خالص من الشوائب ، وان يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة ، ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسي حلل الجمال بدماثة

(١) في الاصل عامته (٢) كذا ولعل صوابه بابين اي قوانين وهي كلمة فارسية
(٣) الخيم بالكسر السجية والطبيعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شمائله ، ويباهي بحقٍ اهل السوُّدد والفخر ، ويلحق بالذُّرى من درجات النباهة والمجد

الا ان المبتديءَ يطلب هذه المرتبة ، والراغب في بلوغ هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة التي يَعنيه تحرّيها ، ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها .

فمن اجل ذلك وجب ان نقول في الاخلاق قولاً نبين فيه ما الخُلُق وما علّته ، وكم انواعه واقسامه ، وما المرضي منهـا ، المغبوط صاحبه ، والمتخلّق به ، وما المستثنى منها ، الممقوت فاعله ، والمتوسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة سنية ، تسمو الى مباراة اهل الفضل ، ونفس ابية تنبو عن مساواة اهل الدناءة والنقص .

وندل (١) ايضاً على طريق الارتياض بالمحمود من انواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للمرتاض به ديدناً وعادة وسجية وطبعاً ، ليهتديَ به من نشأ (٢) على الاخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادة الرديئة وأنس بها .

ونصف ايضاً الانسان التام المهذب الاخلاق ، المحيط بجميع المناقب الخُلقية ، وطريقته التي يصل بها الى التمام ، ويحفظ عليه الكمال ، ليشتاق الى صورته ، مَن تشوّف الى الرتبة العليا ، ويحنّ الى احتذاء سيرته ، من استشرف للغاية القصوى .

---

(١) في الاصل ويدل (٢) ص يشا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد ينتبه ايضاً بما نذكره ، من كانت له عيوب قد اشتبهت عليه ،وهو مع ذلك يظن انه في غاية الكمال ، فان مَن هذه حاله ، اذا تكرر عليه ذكر الاخلاق المكروهة ، تيقظ لما فيه من ذلك ، وأنف منه ، واجتهد في تركه والتنزه عنه

وكذلك اذا تصفح الاخلاق المحمودة من كان جامعاً لاكثرها ، عادماً لبعضها ، قَرِم (١) الى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له ، وتاقت نفسه الى الاحاطة بجميعها ، وقد ينتفع بما نذكره ايضاً من كان في غاية الكمال والتمام ، فان المهذّب الاخلاق ، الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، اذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى ان تلك هي عادته وسجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبة ، وفرحة مبهجة ، كما ان الممدوح يسر اذا ذكر المادح محاسنه ، ونشر فضائله .

وايضاً فانه اذا وجد اخلاقه مدونة في الكتب ، موصوفة بالحسن ، كان ذلك داعياً الى الاستمرار على سيرته ، والاصرار على طريقته .

وهذا حين بدئنا بذكر الاخلاق فنقول :

ان الخُلق هو حال النفس بها يفعل الانسان افعاله بلا روية ولا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون الاّ بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمّل ، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من

(١) القرم محركة شدة شهوة اللحم وكثر حتى قيل في الشوق الى كل شيء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاخلاق المحمودة ·

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك ، فمنهم من يصير اليه بالرياضة ، ومنهم من يبقى على عادته ، ويجري على سيرته ،

فاما الاخلاق المذمومة ، فانها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والظلم والتشرر ، فان هذه العادات غالبة على اكثر الناس ، مالكة لهم بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب ، ولكنهم يتفاضلون في ذلك ·

وكذلك في الاخلاق المحمودة ، قد يختلف الناس ويتفاضلون ، الا ان المجبولين على الاخلاق الجميلة قليلون جداً والمبغضون لها (؟)

فاما المجبولون على الاخلاق السيئة ، فاكثر الناس لانّ الغالب على طبيعة الانسان الشر ، وذلك ان الانسان اذا استرسل مع طبعه ، ولم يستعمل الفكر ولا التمييز ، ولا الحياء ولا التحفظ ، كان الغالب عليه اخلاق البهائم ، لان الانسان انما يتميز عن البهائم ، بالفكر والتمييز ، فاذا لم يستعملهما كان مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستفزه · والسكينة غير حاضرة له ، والحرص والاحتشاد ديدنه ، والشره لا يفارقه

فالناسُ مطبوعون على الاخلاق الرديئة · منقادون للشهوات الدنيئة ، وكذلك وقع الافتقار الى الشرائع والسُّنَنِ ، والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحَسَني السيرة ، ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن غضبه ، ويُعاقبوا الفاجر على فجوره ، ويقمعوا الجائر حتى يعود الى الاعتدال في جميع اموره .

فالاخلاق المكروهة في طباع الناس ، الا ان فيهم من يتظاهر بها ، وينقاد لها . وهم شرار الناس ، وفيهم من ينبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز ، على قبحها ، فيأنف منها ، ويتصنع لاجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ، ونفس شريفة

وفيهم من لا ينتبه لذلك ، الا انه اذا نُبه عليه احسّ بقبحه ، فربما حمد نفسه على تركه

وفيهم من اذا نُبه لما فيه من النقائص . او نبّه عليها . ورام العدول عنها . تعذر عليه ذلك . ولم يطاوعه طبعه . وان كان مؤثراً للعدول عنها مجتهداً في ذلك

وهذه الطائفة تحتاج ان تُرشد الى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة . حتى تصير اليها على التدريج

ومن الناس من ينتبه على (١) الاخلاق الرديئة . او ينبه عليها . فلا يحنّ الى تجنبها . ولا تسمح نفسه لمفارقتها . بل يؤثر الاصرار عليها . مع علمه برداءتها وقبحها

وهذه الطائفة ليس الى تهذيبها طريق الا بالقهر والتخويف والعقوبة

(١) لعله ينتبه الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انْ لم يردعها الترهيب

فامَّا الأخلاق المحمودة . فانها وان كانت في بعض الناس غريزة . فليست في جميعهم . وان الباقين قد يمكن ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ويترقوا اليها بالاعتياد والإلف ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة . ولا الخلق الجميل وذلك يكون لرداءة جوهره . وخبث عنصره

وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم . وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الاخلاق المحمودة وينبو طبعه عن بعضها . وليس يعد هذا شريراً . ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه

فامَّا العلَّةُ الموجبة لاختلاف الاخلاق . فهي النفس . وللنفس ثلث قوىً . وهي تسمّى ايضاً نفوساً

وهي النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس الناطقة وجميع الاخلاق تصدر عن هذه القوى .

فمنها ما يختص باحداهن . ومنها ما تشترك فيه قوتان . ومنها ما تشترك فيه القوى الثلث . ومن هذه القوى ما يكون للانسان وغيره من الحيوان . ومنها ما يختص به الانسان فقط

امَّا النفس الشهوانيَّة فهي للانسان ولسائر الحيوان . وهي التي يكون بها جميع اللذات . والشهوات الجسمانية . كالقرَم الى المآكل والمشارب والمباضعة . وهذه النفس قويةٌ جداً متى لم يقهرها الانسان ويؤدبها ملكته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واستولت عليه . فاذا استولت عليه . عسر تهذيبها . وصعب قمعها وتذليلها .

فاذا تمكنت هذه النفس من الانسان وملكته . وانقاد لها كان بالبهائم اشبه منه بالناس . لان اغراضه ومطلوباته وهمته تصير ابداً مصروفةً الى الشهوات واللذات فقط . وهذه هي عادة البهائم

ومن يكون بهذه الصفة يقلُّ حياؤه . ويكثر خرقه . ويستوحش من اهل الفضل . ويميل الى الخلوات . وينقبض عن المجالس الحَفْلة . ويبغض اهل العلم . ويشنأ اهل الورع والنسك . ويود اصحاب الفجور . ويستحب الفواحش . ويكثر ذكرها ويَلذُّ استماعها . ويسر بمعاشرة السخفاء . ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو . وقد يصير من هذه حاله الى الفجور . وارتكاب الفواحش . والتعرض للمحظورات . وربما دعته محبة اللذات الى اكتساب الاموال من اقبح وجوهها . وربما حملته نفسه على الغصب والتلصص والخيانة . واخذ ما ليس له بحقٍ . فان اللذات لا تتم الاّ بالاموال والاعراض . فمحب اللذة اذا تعذرت عليه الاموال من وجوهها . جسَّرته شهوته على اكتسابها من غير وجوهها

ومن تنتهي به شهواته الى هذا الحدّ . فهو اسوأُ الناس حالاً . وهو من الاشرار الذين يخاف خبثهم . ويستوحش منهم . ويستروح الى البعد عنهم . ويصير واجباً على متولّي السياسات تقويمهم . وتأديبهم . وابعادهم ونفيهم حتى لا يختلطوا بالناس . فان في اختلاط من هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صفته بالناس · مضرة لهم · وخاصّةً لأحداثهم · فانّ الحدث سريع الانطباع · ونفسه مجبولة على الميل الى الشهوات · فاذا شاهد غيره مرتكباً لها · مستحسناً للانهماك فيها · مال هو ايضاً الى الاقتداء به والى مساعدة لذته

وامّا من ملك نفسه الشهوانيّة وقهرها · كان ضابطاً لنفسه · عفيفاً في شهواته · محتشماً من الفواحش متوقياً من المحظورات · محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم · وعفة بعضهم · وفجور بعضهم · هو اختلاف احوال النفس الشهوانية · فانها اذا كانت مهذبة مؤدبةً · كان صاحبها عفيفاً · ضابطاً لنفسه · واذا كانت مهملة مرسلةً · مالكة لصاحبها كان صاحبها فاجراً شريراً · واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة · كرتبتها في التأدب ·

فمن اجل ذلك وجب ان يؤدب الانسان نفسه الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكها فيستعملها في حاجاته التي لا غنىً عنها ويكفّها عما لا حاجة بهِ اليهِ من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة

فامّا النفس الغضبيّة فيشترك فيها ايضاً الانسان وسائر الحيوان وهي التي بها يكون الغضب والجرأة ومحبة الغلبة

وهذه النفس اقوى من النفس الشهوانية وأضرُّ لصاحبها اذا ملكته وانقاد لها فان الانسان اذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر خرقه واشتد حقده وعُدم حلمه ووقاره وقويت جرأته وتسرع عند الغضب الى الانتقام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والايقاع بمغضبه والوثوب بخصومه فاسرف في العقوبة وزاد في التشفّي فاكثر السبّ والخش فيه

فاذا استمرت هذه العادات بالانسان كان بالسباع اشبهَ منهُ بالناس وربما حمل قوماً على حمل السلاح وربما اقدموا على القتل والجراح وربما وثبوا بالسلاح على اخوانهم واوليائهم وعبيدهم وخَدَمهم عند الغضب من اليسير من الامور وربما غضب من هذه حاله ولم يقدر على الانتقام من خصمهِ فيعود بالضرر والسبّ والألم على نفسهِ: فمنهمُ من يلطم وجهه وينتف لحيته ويعض يده ويسبُّ نفسه ويذكر عرضه

وايضاً فانّ من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة متوثباً على من آذاه مقدماً على كل من ناوأه طالباً للترؤس من غير وجههِ فاذا لم يتمكن من الرئاسة من وجهها توصل اليها بالحيل الخبيثة فاستعمل كل ما يمكنهُ من الشر

وهذه الافعال تورّط صاحبها وتوقعهُ في المهاوي والمهالك فان من وثب على الناس وثبوا عليهِ ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليهِ ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر. وربما سَفه الانسان على خصمهِ وكان الخصم أسفه منه فان ناله بسوءٍ قابله ذاك باكثر منهُ

وقد يغلب على من هذه حاله الحسد والخفة والقحة واللّجاج والجور وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على أكتساب الاموال من غير وجهها واخذها بالغصب والغلبة والظلم وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم وربما فعلوا ذلك من غير رويّةٍ فيؤول الامر بهم الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البوار والاستئصال

فأمّا من ساس نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان حليماً وقوراً عادلاً محمود الطريقة فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غضبهم وخرقهم وحلمهم وسفاهة بعضٍ هو اختلاف احوال النفس الغضبية: اذا كانت مذللة مقهورة كان صاحبها حليماً وقوراً واذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها غضوباً سفيهاً ظلوماً غشوماً واذا كانت متوسطة الحال كان صاحبها متوسط الحال رتبتهُ في الحلم كرتبة نفسه الغضبية في التأدب

فمن اجل ذلكَ وجب ان يروض الانسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها فان لهذه النفس ايضاً فضائل محمودة وذلك ان الانفة من الامور الدنيئة ومحبة الرئاسة الحقيقية وطلب المراتب العالية من الاخلاق المحمودة وهي من افعال النفس الغضبية فاذا ملك الانسان هذه النفس بالتأديب والتهذيب واستعملها في الامور الجميلة وكفها عن الافعال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة

واما النفسُ الناطقة وهي التي بها يتميز الانسان من جميع الحيوان وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم وهي التي بها شرف الانسان وعظمت همتهُ فأُعجب بنفسهِ وهي التي بها تستحسن المحاسن وتستقبح القبائح وبها يمكن الانسان ان يهذب قوتيه الأُخريين وهما الشهوانية والغضبية ويضبطها ويكفُّها وبهما يفكر في عواقب الامور فيبادر باستدراكها من اولها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولهذه النفسُ ايضاً فضائل ورذائل

امّا فضائلها فاكتسابُ العلوم والآداب وكفُّ صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الاخريين وتأديبها وسياسة صاحبها في معاشهِ ومكسبهِ ومروءتهِ وتجملهِ وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرقة وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة

وامّا رذائلها فالخُبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرر والرياء وهذه النفس هي لجميع الناس الا ان منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ومنهم من تغلب عليهِ رذائلها فيألفها ويستمر عليها ومنهم من تجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا بتكلف

فامّا المطبوعُ على العادات الجميلة منها فتكون لقوة نفسهِ الناطقة وشرف عنصره

وامّا المطبوعُ على العادات المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره

واما الذي تجتمع فيهِ فضائل ورذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال

وقد يكتسب اكثر الناس هذه العادات وجميع الاخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً وذلك يكون بحسب منشإِ الانسان واخلاق من يحيط بهِ ويشاهده ويقرب منه وبحسب رؤساء وقتهِ ومن يشار اليهِ بالنباهة ويغبط على رتبته فان الحدث والناشيء يكتسب الاخلاق ممن يكثر ملابسته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومخالطته ومن ابويه واهله وعشيرته

فاذا كان هؤلاء سيئي الاخلاق مذمومي الطريقة كان الحدث والناشيء بينهم ايضاً سيء الاخلاق مكروه العادات واذا لحظ الحدث ايضاً اهل الرئاسة ومن فوقه وغبطهم على مراتبهم آثر التشبه بهم والتخلق باخلاقهم

فان كانوا مهذبي الاخلاق حسني السيرة كان المتشبه بهم حسن الاخلاق مرضيّ الطريقة وان كانوا اشراراً جهالاً كان الضابط لهم والسالك طريقهم شريراً جاهلاً

وهذه الحال هي اخلاق اكثر الناس فان الجهل والشرّ والخبث والشرّه والحسد غالب عليهم والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض ويحتذي التابع ابداً سيرة المتبوع واذ كان الغالب عليهم الشر والجهل كان واجباً ان يقتدي احداثهم واولادهم وتبّاعهم بهم

فالعلّة الموجبة لاختلاف اخلاق الناس في سياساتهم وفضائلهم وغلبة الخير والشر عليهم هي اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم: اذا كانت خيرة فاضلة قاهرة للنفسين الباقيتين كان صاحبها خيراً عادلاً حسن السيرة واذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الاخريين كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً

فمن اجل ذلك وجب ان يُعمل الانسان فكره ويميز اخلاقه ويختار منها ما كان مستحسناً جميلاً وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحاً ويحمل نفسه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على التشبه بالاخيار ويتجنب كل التجنب عادات الاشرار فانهُ اذا فعل ذلك صار بالانسانية متحققاً وللرئاسة الذاتية مستحقاً

فأمّا انواع الأخلاق وأقسامُها وما المستحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل وما المستقبح منها المكروه ويعدنقائص ومعايب فهي الانواع التي نحن واصفوها

امّا التي تعدّ فضائل فان منها العفة وهي ضبط النفس عن الشهوات وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أَود الجسد ويحفظ صحته فقط واجتناب السرف والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال وان يكون ما يقتصر عليهِ من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائهِ وفي اوقات الحاجة التي لا غنىً عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج الى اكثر منه ولا يحرس النفس والقوة اقلُّ منه وهذه الحال هي غاية العفة

ومنها القناعةُ وهي الاختصار على ما سنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الاموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل اليه وقهر النفس على ذلك والتقنع باليسير منه

وهذا الخُلق مستحسن من اوساط الناس واصاغرهم فاما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسناً منهم ولا تعدِ القناعة من فضائلهم

(لها تتمة تأتي في العدد القادم)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net